مجلة الجمعية العلمية الايرانية للغة العربية و آدابها، فصلية محكمة، العدد١٢، خريف ١٣٨٨ هـ.ش/٢٠٠٩م، صص ١-٢١

علم العروض بين الأصالة و الهُجنة

الدكتور محمد ابراهيم خليفه الشوشتري[١]

الملخص

إنَّ الواقع التاريخى يشهد أنَّ علم العروض كعلم النحو وليد الحضـــارة الإسلامية، و أنَّ مبتكره هو الخليل بن أحمد الفراهيدي، وأنه ألف في هذا العلم كتاباً و قد ظهر هذا العلم على يديه متكاملاً، مما يدل على عبقريته و نبوغه. لكنَّ الأسباب التالية قد دعت بعض الباحثين المحدثين إلى التشكيك في أصالة علم العروض:

١- أنَّ علم العروض ظهر على يد الخليل بن أحمد كاملاً دون أن يكون ظهوره خاضعاً لسنة التطور.

٢- وجود نص لابن فارس يستفاد منه أنَّ علم العروض كان موجوداً قبل الخليل بن أحمد.

٣- وجود نص للبيروني أُستفيد منه أنَّ الخليل بن أحمد قد قلد الهنود في وضـــعه لعلم العروض.

إنَّ هذه الأسباب ومثلها دفعت بعض المحدثين إلى أن يعتقد قسم منهم أنَّ علم العروض العربي مأخوذ من علم العروض السنسكريتي، و أن يعتقد قسم آخر منهم أنه مأخـــوذ من اليونان، و أن يذهب قسم ثالث إلى أنه كان موجوداً عند العرب قبل الخليل. تثبت اصالة علم العروض: ١- بمناقشة الآراء و النظريات المخالفة، و إثبات بطلانها؛ ٢- إيراد الأدلة التاريخية و العلمية على أصالة علم العروض؛ ٣- بيان الغرض الذي توخاه الخليل بن أحمد من ابتكار هذا العلم؛ ٤- بيان حقيقة معنى كلمة (المتير) الواردة في نص الباقلاني.

المفردات الرئيسة: العروض، القافية، البحر، التفعيلة، الوزن، المتير.

مقدمة

إنَّ الواقع التاريخي يشهد أنَّ علم العروض كعلم النحو وليد الحضارة الإسلامية، و أنَّ الخليل بن أحمد هو مبتكر هذا العلم، ولم يشاركه في وضعه أحد، ولم ينسب لغيره، و سنرى إجماع روايات العلماء على ذلك. والذي يشهد للخليل بالعبقرية أنه جاء بالعروض علماً متكاملاً غير خاضع لسنة التطور.

---

١. استاذ مساعدفى قسم الغة العربية و آدابها بجامعة الشهيد بهشتى m_khalifeh@sbu.ac.ir

تاريخ الوصول:٨٧/١١/٢٣ تاريخ القبول:٨٨/٥/٢٧

فألف فيه كتاباً، كما ألف في النغم و الإيقاع كتاباً آخر. و إنَّ معرفته العميقة بالإيقاع و النغم أحدثت له علم العروض. لكننا – مع الأسف الشديد – نرى من يخالف هذه الحقيقة المجمع عليها متمسكاً بما لا يقوم دليلاً علمياً على ما يريد إثباته.

أما الجديد في هذه المقالة فيتلخص في النقاط التاليـــة: الأولى: الحيوية و روح النقاش العلمي المصحوب بدقة النظر؛ والثانية: الاشارة الى أنَّ بعض المستشرقين كبروكلمان قد أكد على أصالة علم العروض، و أنه من ابتكارات الخليل بن أحمد؛ و الثالثة: التحقيق في المصطلح العروضي الذي نقله من كتاب (إعجاز القرآن) للباقلاني مَن ظن أنه مصطلح عروضي يوناني، فاستدل به على أنَّ علم العروض مأخوذ من العروض اليوناني، لكن التحقيق أفاد أنَّ هذا المصطلح عربي، و ليس يونانياً، و أنَّ من استدل به قد أخطأ في نقله من كتاب (إعجاز القرآن)، فهو (متير)، و ليس (ميتر)، و بذلک يبطل استدلالهم به؛ و الرابعة: أنَّ هذة المقالة تطرح موضوعها طرحاً منهجياً موجزاً مدعوماً بالدليل ليكون سهل التناول للدارسين؛ والخامسة: التصدي لمناقشة النظريات الثلاث القديمة الموجودة في هذا المجال، و التي تجتمع على عدم أصالة علم العروض.

لكنها لاتتفق على الجهة التي أخذ الخليل منها بزعمهم علم العروض: فانفردت إحداها بأنه أخذه من العرب القدامىٰ، و انفردت الأخرى بأنه أخذه من اليونان، و ذهبت الثالثة إلى أنه أخذه من عروض اللغة السنسكريتية. أما العروضيون المعاصرون الذين لايرون أصالة علم العروض العربي، فقد انقسموا تبعاً لتلك النظريات الى ثلاثة أقسام.

آراء و مناقشات حول أصالة علم العروض:

الحق أننا وجدنا آراء مختلفة حول أصالة علم العروض، فأكثرها يؤكد أصالته و بعضها يذكر أنَّ الخليل لم يكن أول مبتكر لعلم العروض، و بعضها الآخر يشير إلى عدم أصالته، و أنه متأثر بعروض الأمم الأخرى و بعد استقصاء جميع تلك الآراء استطعنا أن نقسمها إلى مجموعتين تسهيلاً على الدارس، و نحن نذكر – فيما يلي – جميع تلك الآراء المستقصاة مشفوعاً كل منها بالمناقشة اللازمة، و ذلك ضمن المجموعتين التاليتين:

المجموعة الأولى: و تتمثل فيرأي واحد مجمع عليه من قبل العلماء المسلمين عرباً و غير عرب: و هذا الرأي هو أنَّ الخليل هو المبتكر الأول لعلم العروض، و قد جاء به متكاملاً، و لم يسبقه أحد إليه.

وإليك باقة من أقوال العلماء التي تثبت ذلك على مدى سبعة قرون ابتداء من القرن الثالث و انتهاء بالقرن العاشر:

١- قال ابن سلام الجمحي المتوفى سنة ‹٢٣١ هـ›:" ثم كان الخليل بن أحمد ... فاستخرج من العروض، و استنبط منه و من علله ما لم يستخرج أحد، و لم يسبقه إلى مثله سابق من العلماء كلهم ". (الجمحي، ١٩٧٠ م: ج ١ / ٢٢).

٢- و قال الجاحظ المتوفى سنة ‹٢٥٥ هـ ›: " نظر الخليل البصري في الشعر و وزنه و مخارج ألفاظه، و ميّز ما قالت العرب منه، و جمعه، و ألّفه، و وضع في الكتاب الذي سماه العروض، و ذلك أنه عرض جميع ما روي من الشعر، و ما كان به عالماً، على الأصول التيرسمها، و العلل التي بينها، فلم يجد أحداً من العرب خرج منها، و لا قصر دونها. فلما أحكم و بلغ ما بلغ، أخذ في تفسير النغم و اللحون، فاستدرك منه شيئاً، و رسم له رسماً احتذى عليه من خلفه، و استتمه من عني به".(الجاحظ، ١٩٨٧: ٢١٨).

٣- و قال ابن المعتز المتوفى سنة «٢٦٩ هـ »: " كان الخليل بن أحمد أعلم الناس بالنحـــو و الغريب ..... و أول من اخترع العروض و فتقه، و جعله ميزاناً للشعر ". (ابن المعتز، ٢٠٠٢م: ٩٥).

٤- و قال أبو الطيب اللغوي المتوفى سنة ‹٣٥١هـ ›: " و مما أبدع فيه الخليل اختراعه العروض التي حظِرت على أوزان العرب، و ألحقت المفحمين بالمطبوعين. و بلغنا عن الخليل أنه تعلق بأستار الكعبة، و قال: اللهم ارزقني علماً لم يسبقني إليه الأولـــون
و لا يأخذه إلاّ عني الآخرون، ثم رجع، و عمل العروض ". (اللغوي، ١٩٧٤ م: ٥٨)

٥- و قال أبو سعيد السيرافي المتوفى سنة ‹٣٦٨ هـ› :" و أما الخليل بن أحمد .... فقد كان الغاية في استخراج مسائل النحو، و تصحيح القياس فيه، و هو أول من استخرج العروض، و حصَر أشعار العرب بها ". (السيرافي، ١٩٣٦ م: ٣٨).

٦- وقال الأزهري المتوفى سنة ‹٣٧٠ هـ ›: " كان الخليل بن أحمد، و هو رجل من الأزد..... فاستخرج من العروض، و استنبط منه و من علله ما لم يستخرجه أحد، و لم يسبقه إلى علمه سابق من العلماء كلهم ". (الأزهري، ٢٠٠١ م: ج ١ / ١٠).

٧- وقال أبو بكر الزبيدي المتوفى سنة ‹٣٧٩ هـ ›: " و كان الخليل ذكياً فطناً شاعراً و استنبط من العروض و من علل النحو ما لم يستنبط أحد، و ما لم يسبقه إلى مثله سابق". (الزبيدي، ١٩٧٣ م: ٤٣).

٨- و قال ابن النديم المتوفى حوالي سنة ‹٣٨٥ هـ › :"و هو أول من استخرج العروض و حصن به أشعار العرب". (ابن النديم، ١٩٧٨ م: ٦٤).

٩- و قال ابن رشيق القيرواني المتوفى سنة «٤٦٣ هـ»: "فأول من ألف الأوزان، و جميع الأعاريض و الضروب الخليل بن أحمد، فوضع فيها كتاباً سماه العروض ". (ابن رشيق، ١٩٣٤ م: ج١ / ١١٤).

١٠- و قال الشنتريني المتوفى سنة ‹٥٤٩ هـ›: " و جملة أعاريض الشعر و ضروبها عند الخليل أربع و ثلاثون عروضاً و ثلاثة و ستون ضرباً " .(الشنتريني، ١٩٦٨ م: ١٥).

١١- و قال أبو البركات الأنباري المتوفى سنة ‹٥٧٧ هـ› :" و هو أول من استخرج علم العروض و ضبط اللغة .... و كان أول من حصر أشعار العرب". (الأنباري، ١٩٦٧ م: ٤٦).

١٢- و قال أبو يعقوب السكاكي المتوفى سنة ‹٦٢٦ هـ›: " الإمام الخليل بن أحمد ذلك البحر الزاخر، مخترع هذا النوع، و على الأئمة المغترفين منه من العلماء المتقدمين به ". السكاكي، ١٩٨٧ م: ٥١٨).

١٣- و قال الحموي المتوفى سنة ‹٦٢٦ هـ›: " و هو أول من استخرج العروض، و ضبط اللغة، و حصر أشعار العرب. يقال إنه دعا بمكة أن يرزقه الله – تعالى – علماً لم يسبق به، فرجع، و فتح عليه بالعروض و كانت معرفته بالإيقاع هو الذي أحدث له علم العروض ". (الحموي، ١٩٩١ م: ج ١١ / ٧٣- ٧٤).

١٤- و قال القفطي المتوفى سنة ‹٦٤٦هـ›: "استنبط من العروض و علله ما لم يستخرجه أحد، و لم يسبقه إلى علمه سابق من العلماء كلهم". (القفطي، ١٩٥٠ م: ج ١ / ٣٤٢).

١٥- و قال حمزة بن الحسن الاصبهاني، و هو من علماء القرن الرابع الهجري: " إنَّ دولة الإسلام لم تخرج أبدع للعلوم التي لم يكن لها عند علماء العرب أصول، من الخليل.وليس على ذلك برهان أوضح من علم العروض الذي لا عن حكيم أخذه، ولا على مثال تقدمه احتذاه، و إنما اخترعه من ممر له بالصفارين من وقع مطرقة على طست ليس فيهما حجة، و لا بيان يؤديان إلى غير حليتهما، أو يفيدان غير جوهرهما، فلو كانت أيامه قديمة و رسومه بعيدة لشك فيه بعض الأمم لصنعة ما لم يصنعه أحد منذ خلق الله الدنيا من اختراعه العلم الذي قدمت ذكره، و من تأسيسه بناء كتاب ‹العين› الذي يحصر لغة أمة من الأمم قاطبة، ثم من إمداده سيبويه من علم النحو بما صنف منه كتابه الذي هو زينة لدولة الإسلام". (ابن خلكان، ١٩٦٩ م: ج ٢ / ٢٤٥).

١٦- و قال ابن خلكان المتوفى سنة ‹٦٨١ هـ›: " الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي .... كان إماماً في علم النحو، و هو الذي استنبط علم العروض، و أخرجه إلى الوجود، و حصر أقسامه في خمس دوائر يستخرج منها خمسة عشر بحراً، ثم زاد فيه الأخفش بحراً آخر، و سماه الخبب. وقيل: إن الخليل دعا بمكة أن يرزق علماً لم يسبقه أحد إليه، و لا يؤخذ إلاّ عنه، فرجع من حجّه، ففتح عليه بعلم العروض، و له معرفة بالايقاع و النغم، و تلك المعرفة أحدثت له علم العروض، فانهما متقاربان في المأخذ ". (المصدر نفسه، ج ٢ / ٢٤٤).

١٧- و قال الفيروز آبادي المتوفى سنة ‹٨١٧ هـ›: " العروض: مكة و المدينة – حرسهما الله تعالى – .... و ميزان الشعر، لأنه به يظهر المتزن من المنكسر .... أو لأنَّ الشعر يعرض عليها، أو لأنه ألهمها الخليل بمكة ". (الفيروز آبادي، ١٩٨٧ م: ج ١ / ٨٧٣).

١٨- وقال جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ‹٩١١ هـ›: " الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري أبو عبد الرحمن صاحب العربية و العروض ..... و هو أول من استخرج العروض، و حصر أشعار العرب بها ". (السيوطي، ١٩٧٩ م: ج ١ / ٥٥٧).

الحق أنَّ هذه النصوص الصريحة إنما تدل على اجماع علماء العصور المختلفة على أصالة علم العروض، و أنَّ مبتكره الأول هـــو الخليل بن أحمد الفراهيدي بلا منازع و أنه لم يستفد من أعمال من سبقه من علماء الأمم الأخرى. و هذا ما صرح به الخليل نفسه حين قال: " اللهم ارزقني علماً لم يسبقني إليه الأولون، و لا يأخذه إلاّ عنّي الآخرون ". (اللغوي، ١٩٧٤ م: ٥٨).

و في ختام هذه المجموعة أود أن أنتخب أحد المستشرقين و أحد الدارسين المعاصرين لنرى رأيهما في أصالة علم العروض. و قد وقـــــع الاختيار على كارل بروكلمان المستشرق الألماني صاحب كتاب تاريخ الأدب العربي، و أحمد أمين المؤرخ الإسلامي المعروف .

قال أحمد أمين المصري:" إنما الذي كان له الفضل الأكبر في ذلك الخليل بن أحمد ذو العقل الجبار المبتكر الذي قلَّ أن يوجد له نظير في علماء ذلك العصر، و الذي عكف على العلم يخترع فيه، و يستنبط أصوله من فروعه على طريقة لم يسبق إليها، و اكتفى في دنياه بالقليل من العيش، و وجـــد في لذته الفكرية عوضاً عن كل لذة، فهو أول مبتكر للمعاجم العربية، كما رأيت، و هو أول مبتكر لوضع العروض، و حصر كل أشعار العرب في بحور، و هو الذي اخترع علم الموسيقى العربية، و جمع فيه أصناف النغم .... فهو يخترع العلم و يتركه لتلاميذه يدونونه ". (أمين، ١٩٣٥ م:ج ٢ / ٢٩٠).

قال بروكلمان:" و لا خلاف بين العلماء، على أنّ الخليل – أيضاً – مبتكر علم العروض". (بروكلمان، ١٩٥٩ م: ج ٢ / ١٣١).

المجموعة الثانية

هي التي حملت فكرة أنَّ الخليل قد سُبق إلى ابتكار علم العروض، و أنه استفاد علمياً مِنْ أعمال مَن سبقه مِن علماء العرب في الجاهلية أو من علماء الأمم الأخرى كاليونان و الهند .لذلك فهذه المجموعة تشتمل على ثلاث نظريات قديمة مخالفة لإجماع العلماء المتقدم: و هي الآتية:

النظرية لأولى: تقول: إنَّ الخليل استفاد من أعمال مَن سبقه من علماء العرب في الجاهلية.

و صاحب هذه النظرية هو أحمد بن فارس المتوفى سنة ‹٣٩٥ هـ› الذيرأى في نصه التالي الأصالة العربية لعلم العروض إذ اعتقد أنَّ علم العروض كان قديماً قبل الخليل، ثم أتت عليه الأيام، فاندثر، و بعد أن جاء الخليل جدد هذا العلم، و كذلك اعتقاده في علم النحو الذي جدده أبو الأسود بعد أن كان مندثراً.

قال ابن فارس: "فان قال قائل فقد تواترت الروايات بأنَّ أبا الأسود أول من وضع العربية و أنَّ الخليل أول مَن تكلم في العروض، قيل له: نحن لا ننكر ذلك بل نقول: إنَّ هذين العلمين قد كانا قديماً، و أتت عليهما الأيام و قَلاّ في أيدي الناس، ثم جددهما هذان الإمامان. و قد تقدم دليلنا في معنى الاعراب. و أما العروض، فمن الدليل على أنه كان متعارفاً معلوماً اتفاق أهل العلم على أنَّ المشركين لما سمعوا القرآن قالوا، أو من قال منهم: إنه شعر. فقال الوليد بن المغيرة منكراً عليهم: لقد عرضت ما يقرؤه محمد على أقراء الشعر هزجه و رجزه و كذا و كذا، فلم أره يشبه شيئاً من ذلك. أفيقول الوليد هذا و هو لا يعرف بحور الشعر ؟ و قد زعم ناس أنَّ علوماً كانت في القرون الأوائل و الزمن المتقادم و أنها دَرست، و جُددت منذ زمان قريب، و ترجمت، و أصلحت منقولة من لغة إلى لغة. و ليس ما قالوا ببعيد و إن كانت تلك العلوم – بحمد الله و حسن توفيقه – مرفوضة عندنا ". (ابن فارس، ١٩٦٣ م: ٣٨).

مناقشتنا لنظرية ابن فارس

إنَّ ابن فارس قد استدل في نصه المتقدم بالدليلين التاليين:

الدليل الأول: أنَّ شعراء الجاهلية و أدباءها كانوا يعرفون بحور الشعر، و أنَّ معرفة بحور الشعر دليل على وجود علم العروض.

المناقشة

إنني أبدأ تفنيد هذا الدليل بذكر النص التالي، ثم أتلوه باستخلاص الردود، على شكل نقاط. قال الدكتور بدوي طبانة تحت هذا العنوان: ‹أوزان المعلقات و قوافيها›: "أما الأوزان فقد اهتدى إليها أولئك الشعراء بوحي من فطرتهم، و نظموا في تلك الأبحر الشعرية بآذانهم الموسيقية المرهفة التي كانت تصحح أخطاءهم، فكانوا يضبطونها تلقائياً إذا انحرفوا عن مواقع النغم أو وقعوا في شذوذه الذي تنكره أذواقهم و أسماعهم، كما كان لطول التجربة وكثرة المعاناة أثرهما في هذا الضبط و التصحيح من غير معلمين يوقفونهم على مواضع الخطأ و الصواب.

و لا شك أنَّ أولئك الشعراء بطبيعتهم كانوا أكثر الناس إحساساً بموسيقى الشعر و تأثراً بها، و ليس من الطبيعي أن يلقنوا أصول هـــذه الصناعة من عامة الناس أو من علمائهم، لأنَّ التقنين العلمي و وضع القواعد التي تنظم هذه الصناعة لم يكن لهما وجود في تلك البيئة البدائية، و إنما وضعت تلك القوانين، و نظمت القواعد فيما بعد في عصور الحضارة باستقراء تلك الأبيات و القصائد التي وضع الشعراء فيها بأنفسهم تقاليد هذا الفن و أصوله. و لم يكن أصحاب المعلقات هم الذين اخترعوا هذه الأوزان التي نراها في قصائدهم و إنما كانت تلك الأوزان و غيرها من تقاليد الشعر ثمرة للتجارب الكثيرة التي عبرها فن الشعر عند الموهوبين من أبناء الأمّة العربية في عصور موغلة في القدم قبل نشأة أصحاب المعلقات. و ليس هذا المجال مجال البحث في أولية الشعر و تطوره من الحداء إلى الرجز إلى المعلقات، و انتهائه إلى تلك القصائد الطويلة المحكمة. و قد سبق أن قررنا أنَّ الشعر الذي نقرؤه في المعلقات كان الصورة المثلى للفن الشعري كما تصوره العرب، أو بعبارة أخرى كان هذا الشعر هو التجربة الأخيرة لهذا الفن بعد أن بانت معالمه بعد المرور بتجارب كثيرة على أيدي عدد كبير من الشعراء،منهم من عرفه التاريخ، وكثير منهم طوى ذكرهم الزمن". (طبانة، ١٩٦٧ م: ٣٨١- ٣٨٢).

و أختصر ردود هذا الدليل في النقاط التالية:

١- أنه لا يوجد تلازم بين معرفة أنواع الشعر و وجوب أن يكون علم العروض موجوداً قبل ذلك، إذ إنَّ معرفة أنواع الشعر لا تتوقف على علم العروض.

٢- أنَّ نظرية ابن فارس هذه تنتهي إلى القول بأنَّ العصر الجاهلي كان مزدهراً بابتكار العلوم التي منها علم العروض، و علم النحو، و أنَّ سوق الترجمة كانت رائجة في ذلك العصر البدائي. و هذا ما أكد التاريخ نفيه .

٣- أنَّ نظرية ابن فارس هذه مخالفة لما عليه المحققون من أنَّ الشعرلم يظهر دفعة واحدة، و إنما تمثلت بدايته بالحداء، ثم تطور إلى الرجز، ثم إلى المقطعات، ثم انتهى إلى المعلقات، و القصائد الطويلة. فكأن ابن فارس يريد أن يقول: إنَّ شعراء الجاهلية تعلموا الوزن أولاً، ثم بدأوا يقولون الشعر وفقاً لما يقتضيه الوزن. و ليت شعري هل يمكن أن يوجد علم الوزن قبل أن يظهر الشعر إلى الوجود ؟ و إنَّ علم الوزن أو علم العروض إنما يوجد بعد ظهور الشعر، و تكامل إيقاعاته لأنه يستنبط منه، كما أنَّ علم النحو استنبط من اللغة العربية المتكاملة. ثم قديفهم من كلام ابن فارس أنه ينكر على بلغاء العرب أن يكونوا قد تمتعوا بالحس الموسيقي المرهف و الذوق الإيقاعي المتميز الذي فطروا عليه علماً بأنَّ لغتهم لغة موسيقية إلى درجة أنَّ الوزن ينتشر في النثر دون قصد.

الدليل الثاني: الذي استدل به ابن فارس هو أنَّ ناساً زعموا أنَّ علوماً كانت في القرون الأوائل و الزمن المتقادم، و أنها درست، و جددت منذ زمان قريب، و ترجمت و أصلحت منقولة من لغة إلى لغة، و ذهب إلى أنَّ ما قالوه ليس ببعيد، و إن كانت تلك العلوم مرفوضة عنده.

المناقشة

و هذا الدليل مردود كسابقه، و أختصر ردي في النقاط التالية:

١- أنَّ ابن فارس لم يذكر المصدر الذي ذكر هذه العلوم .

٢- أنه لم يذكر أنواع هذه العلوم.

٣- أنه لم يُعيّن الزمن الذي جددت فيه هذه العلوم، و اكتفى بقوله: ‹وجددت منذ زمان قريب›.

٤- أنه لم يُعيّن الزمن الذي نقلت فيه، كما لم يعين اللغة التي نقلت منها.

و هكذا نجد الإبهام يحيط بما اعتقده ابن فارس، كما نجد أنَّ الحقائق التاريخية قائمة على خلاف ما ذهب إليه، لأنَّ العصر الجاهلي و لا سيما العصر الجاهلي الموغل في القدم، كان عصراً بدائياً خاليا من العلوم.

٥- أنه حمد الله – تعالى – على أنَّ تلك العلوم مرفوضة عنده، أو عند أهل العلم.

و لست أدري هل إنَّ تلك العلوم كانت تمس بكرامة العقيدة الإسلامية ؟

هذا ما أفهمه من كلامه. و المهم أنه إذا كانت هذه العلوم مرفوضة فهي – بلا شك – ليس من أنواعها علم النحو، و علم العروض، لأنَّ إجماع العلماء قائم على قبول هذين العلمين.

٦- أنَّ ابن فارس عقد في كتابه ‹الصاحبي في فقه اللغة› هذا باباً أسماه: "باب ذكر ما ما اختصت به العرب ". (ابن فارس، ١٩٦٣ م: ٧٧). و لم يذكر فيه إلاّ ثلاثة أمور أو علوم هي الاعراب ‹النحو›، و العروض، و حفظ الأنساب .

و إني أجد شيئاً من التناقض بين كلامه هذا و ما ذكره في نصه المتقدم، مما قد يشير إلى أنَّ علم النحو و علم العروض ليسا أصيلين.

٧- أنَّ " ما ادعاه ابن فارس .... لا يقوم على حجة، ذلك لأنَّ التدوين العلمي بمعناه الفني و الاصطلاحي لم يكن في الجاهلية، لا الجاهلية الأولى، و لا الثانية، و ليس هناك أي سند أو رواية تؤيد هذا الزعم .... كما أنَّ هذه الاصطلاحات العلمية و الفنية وليدة حضارة فكرية و عقلية منطقية فنية، هي نبت حضارة و مدنية اجتماعية، و ثقافة خاصة لا تتناسب و طبيعة البداوة". (الزمخشري، ١٩٧٠ م: ١٠)

مناقشتنا لمن أيد نظرية ابن فارس من الباحثين المحدثين

إنَّ الدكتور مصطفى السنجرجي المصري قـــد أيد في نصه التالي نظرية ابن فارس و استدل لها برواية؛ قال الدكتور السنجرجي: "و مما يؤيد مذهب ابن فارس ما روي من أنَّ الخليل سئل هَـــل للعروض أصل عند العرب ؟ قال: نعم، مررت بالمدينة حاجاً، فرأيت شيخاً يعلم غلاماً، يقول له: قلْ:

نعم لا. نعم لالا. نعم لا. نعم لالا نعم لا. نعم لالا. نعم لا. نعم لالا

فقلت له: ما هذا الذي تقوله للصبي؟ فقال: علم يتوارثونه عن سلفهم، يسمونه ‹التنعيم› لقولهم فيه ‹نعم›، قال الخليل: فرجعت بعد الحج، فأحكمتها.

و في ضوء هذه الرواية نستطيع أن نقرر أنَّ الخليل قد وزن ‹نعم لا› بكلمة: ‹فعولن› و ‹نعم لالا› بكلمة ‹مفاعيلن›، وهكذا، و يمكن أن نقول: إنَّ هذا الوزن هو الوزن القديم للبحر الطويل.

و أرى أنَّ نسبة الوضع إلى الخليل تعني أنه أول من أبرز علماً مكتملاً ذا أصول و قواعد و إن كانت قبله محاولات بدائية في هذا المجال، و الأمر كذلك بالنسبة لموقف أبي الأسود من علم النحو". (السنجرجي، ١٩٧٤ م: ٧).

المناقشة

أختصر مناقشتي للدكتور السنجرجي في النقاط الثلاث التالية:

١- أنَّ طريقة التنعيم هذه قاصرة، لا تجري في جميع البحور الشعرية، إذ إنها لا تشمل البحر الكامل، و البحر الوافـــر، و غيرهما، إلاّ بتأول متصور، لأنَّ رواية التنعيم لم تشر إلى مثل: ‹نَعَمْ نَعَ لاْ› و ‹لالالانَ›، في حين أنَّ هذه الأبحر كانت موجودة في الشعر الجاهلي إذ إنَّ معلقة لبيد و معلقة عنترة من بحر الكامل و إنَّ معلقة عمرو بن كلثوم من بحر الوافر.

٢- أنَّ الدوائر العروضية التي ابتكرها الخليل بن أحمد خير دليل على أصالة عمله، و أنَّ تفعيلاته الكاملة التي استغرقت جميع البحور الشعرية تدل على عمل علمي مبتكر أصيل غير مفتقر إلى عمل سابق.

٣- أنَّ العلماء أجمعوا على أنَّ الخليل هو أول من ابتكر هذا العلم، و قد مر هذا في بداية هذا الموضوع.

النظـــرية الثانية: تقول: إنَّ الخليل استفاد من أعمال مَن سبقه من علماء اليونان، و استناداً لما يفهم من كلام أبي الريحان البيروني نستطيع أن نزعم أنَّ هذه النظرية نظرية قديمة، لكنَّ بعض الباحثين المعاصرين مثل الجارم تبنى هذه النظرية مســـتدلاً بورود لفظة ‹ميتر› في كتاب الباقلاني.

النظـــرية الثالثة: تقول: إنَّ الخليل استفاده مِن أعمال مَن سبقه من علماء الهند، و هذه النظرية قديمة أيضاً. و قد تبناها بعض الدارسين المحدثين مثل الدكتور صفاء خلوصي، و هو لا يعلم – كما يبدو من كلامه – أنها نظرية قديمة.

مناقشتنا للنظريتين المتقدمتين

أبدأ مناقشتي لهاتين النظريتين المتقدمتين بالمقدمة التالية، ثم أناقش كلاً منهما على حدة: إنَّ " الشعر في كل أمة يترع أول أمره مترعاً فطرياً توحي به الفطرة و تدفع إليه السليقة و الشعراء منهم يقولون الشـــعر فيأتون به سليماً وفق القوانين الذوقية العامة المستنبطة من ذوق الأمة العام، قبل أن يفكروا في القوانين أنفسها، و قبل أن يعرفوا الأوزان التي ينظمون عليها، و العيوب التي تعرض للشعر قوافيه و أوزانه، و يبقى الشعر هكذا فطرياً سليقياً مادامت لغة الأمة بعيدة عن التعرض لخطر يهدد كيانها بتهديد تراثها ". (المخزومي، ١٩٨٦ م: ١٩١). "و الحق الذي لامراء فيه أنَّ مقاييس الشعر أو أوزانه قد استخلصت من ضروب الغناء المختلفة التي كان العرب منذ عصورهم الأولى يتغنون بها في بواديهم و هم يتنقلون، و في حلهم حين يستقرون مستنبطة من طبائعهم و نزعات أنفسهم و سلائقهم و أمزجتهم، فالبدوي يتغنى و يترنم و هو على ظهر بعيره أو فرسه يساوق بين ترجيعه و رسيم ناقته ... أو يحدو بناقته أو قافلته، و يتغنى و يُرجّع، و هو في الحرب يُصاول، و ينازل، و يكر، و يفر، أو يلاعب الأسنة و القرناء زهواً و خيلاء، و كذا هو في أفراحه و فواجعه، و مآتمه، و أعراسه يترنم جذلاً، أو يندب حزناً، و كل ذلك غناء و ألحان و شعر، فالشعر قرين الغناء، وجد مع الغناء، و الغناء وجد مع الإنسان.

فالأوزان الشعرية ليست إلاّ مقاييس لما تغنت به العرب، و ضبطوها فيما بعد بهذه المقاطع و الحركات و السكنات، و كان بذلك علم العروض: و هو معرفة تلك الأوزان و المقاييس، و وضعت له الأسماء و المصطلحات، فهو في مفهومه و معناه علم قديم لا يعرف له مبدأ، مستخلص من السليقة العربية، يعرفونه من غير تعلم، كما عرفوا إعراب كلامهم بالسليقة و النشأة التي نشأوا عليها من غير تعلم أيضاً". (الزمخشري، ١٩٧٠ م: ٧).

و إنَّ " أكبر الظنَّ أنَّ العروض قضية اجتماعية تدفع إلى تحقيقها حاجة اجتماعية عارضة، و تحدو إليها الرغبة في المحافظة على سلامة التراث القومي، و إنّ أمة من الأمم لا تشعر بضرورتها إلاّ حين تحيط بها ظروف يخشى منها على كيان أو تراث و أنَّ اليونان لم يشعروا بالحاجة إلى العروض إلاّ بعد أن أخذت اليونان تتوسع، و تختلط بأهل البلاد المفتوحة الذين أخذوا يشاركونها ثقافتها و علومها، و يحاكونها في فنونها، و منها الشعر، و لا يخفى ما يستتبع ذلك من أخطار تهدد سلامته". (المخزومي، ١٩٨٦ م: ١٩١).

و لا شك أنَّ "العروض العربي لم ينشأ إلاّ حين دعت إليه الحاجة و لم تتسم هذه الحاجة بالضرورة إلاّ بعد أن اختلط العرب بغيرهم، و عاشوا في بيئة واحدة، يتبادلون في العيش و العادات و الثقافات، و إلاّ بعد أن أخذت تفد على المجتمعات العربية مع الوافدين الأجانب أوزان لم يكن للعرب بها عهد. و كان الخليل بن أحمد في هذا هو المتحمل لهذه التبعة، و المنقذ للتراث العربي، حين شعر بالخطر يهدده ". (المصدرنفسه، ١٩٢).

لقد فهمنا من المقدمة المتقدمة الأمرين التاليين:

الأمر الأول: أنَّ الشعر ظهر أول أمره بدافع فطري سليقي تحكمه القوانين الذوقية العامة المستنبطه من ذوق الأمة العام.

الأمر الثاني: أنَّ الدافع لوضع هذه القوانين الذوقية، و إخراجها بشكل علم هو الحاجة الاجتماعية العارضة، و الخوف على كيان التراث القومي للأمة أية أمة كانت. فالدافع لوضع علم العروض هو الخشية من الظروف الطارئة على سلامة التراث القومي في كل أمة، و هذا ما حدث فعلاً لليونان و الهنود و العرب على حد سواء.

فالدافع لإيجاد علم العروض عند اليونان و الهنود و العرب هو دافع اجتماعي ثقافي واحد دون أن تتأثر أمة بأمة أخرى.

و لا شك أنَّ مجرد التشابه بين عروض هذه الأمم الثلاث لا يثبت أمراً. لأنه تشابه ناتج عن تشابه القوانين التي يسير عليها الفكر البشري. و أما ما يخص النظرية الثانية – التي ذهبت إلى أنَّ الخليل قد استفاد من علماء اليونان بدليل وجود كلمة ‹ميتر› اليونانية التي وردت في كتاب إعجاز القرآن للباقلاني – فاننا نجيب بالأوجه الثلاثة التالية إضافة لما تقدم بيانه:

الوجه الأول: أن أصحاب هذه النظرية قد اعتبروا كلمة ‹ميتر› يونانية، و استدلوا بورودها في قصة نقلها الباقلاني، استدلوا بذلك على أنَّ الخليل قد استفاد من عمل علماء اليونان في هذا المجال.

لكنَّ حقيقة الأمر على خلاف ما اعتبروه، و ما استدلوا به: لأنهم نقلوا هذه الكلمة من كتاب إعجاز القرآن للباقلاني خطأ، إذ قد نقلوها هكذا: ‹ميتر› في حين أثبتها الباقلاني هكذا: ‹متير›، و فسرها بالقطع و الجذب، و لا شـــك أنَّ كلمة ‹متير› بهـــذا المعنى عربية و ليست يونانية، و الدليل على ذلك الأمران التاليان:

الأمر الأول: أنَّ الباقلاني الذي أورد هذه الكلمة قال: "و حكى لي بعضهم عن أبي عمر غلام ثعلب عن ثعلب: أنَّ العرب تعلم أولادها قول الشعر بوضع غير معقول، يوضع على بعض أوزان الشعر، كأنه على وزن:

قفا نبكِ من ذِكرى حبيبٍ و مَنزِلِ

و يسمون ذلك الوضع ‹المتير›، و اشتقاقه من المتر، و هو الجذب أو القطع، يقال :‹مترتُ الحبل› أي: قطعته، أو جذبته. و لم يذكر هذه الحكاية عنهم غيره ". (الباقلاني، ١٩٧٧ م: ٦٣).

فالباقلاني لحسن الحظ لم يترك في هذا النص كلمة ‹المتير› دون تفسير، بل فسرها بالقطع و الجذب.

و إنيرجعت إلى مصادر اللغة، مادة (متر)، فوجدت ذلك فيها على النحو التالي:

المَترُ: القطع، و مَدُّ الحبل، و الجماع، و الجذب.

مَترَهُ مَتراً: قطعه.

و مَترَ الحبل يَمْترُهُ: مَدَّه.

و التّماتُر: التجاذب.

و يقال: رأيت النار من الزند تتماترُ: أي: تترامى، و تتساقط. (ابن منظور، ١٩٩٩ م: مادة«متر» و الفيروز آبادي، ١٩٨٧ م: مادة «متر»). كل ذلك يدل على أنَّ كلمة ‹المتير› عربية مع هذه الاستعمالات و الاشتقاقات المختلفة.

الأمر الثاني: أنَّ الباقلاني لم يشر إلى أنَّ هذه الكلمة ‹المتير› غير عربية، كما أنَّ ابن منظور، صاحب لسان العرب، و الفيروز آبادي، صاحب القاموس، لم يذكرا أنَّ هـــــذه الكلمة غير عربية.

و إذا صح ما قدمناه، فلا يجوز، و لا يصح الاستدلال بهذه الكلمة ‹المتير› على أنَّ الخليل استفاد من علم العروض اليوناني، لأنَّ هذه الكلمة عربية خالصة.

الوجه الثاني: أننا ذكرنا، فيما سبق، أنَّ مجرد وجـــود التشابه لا يثبت، بالضرورة، أمراً " فكثير من أوجه الشبه بين عاملين ناتج عن تشابه القوانين التي يسير عليها الفكر البشري، فاذا ما عرضت للفكر العربي حاجة عرضت مثلها لليونان و الهنود، فأدت إلى وجود النحو العربي، أو العروض العربي، فان ذلك لا يعني أنَّ ما قام به العرب من أعمال متأثر تأثيراً مباشراً، أو مقتبس اقتباساً من أعمال اليونان أو الهنود".(المخزومي، ١٩٨٦ م: ١٩٢).

و هذا أمر عام شامل لجميع العلوم التي تبتكرها الأمم بدافـــع الحاجة، لكنَّ علماء العروض القدامى قد نصوا على التشابه الموجود بين الأمم المختلفة في الوزن و القافية .

قال الزمخشري :" فهذه أربعة أشياء: اللفظ، و المعنى، و الوزن، و القافية. فاللفظ وحـــده هو الذي يقع فيه الاختلاف بين العرب و العجم، فانَّ العربي يأتي به عربياً و العجمي عجمياً. فأما الثلاثة

الأخر، فالأمر فيها على التساوي بين الأمم قاطبة .... و ذلك لأنَّ الأمم عن آخرها متساوقة إلى المعاني و القوافي، و الافتنان فيها لا اختصاص لها بأمه دون أمة ". (الزمخشري، ١٩٧٠ م: ٥٦)

و هذا أبو الريحان البيروني نفسه قد أقر بهذه الحقيقة من قبل، فقال: " النفس تواقة إلى كل ما له تناسب و نظام، و مشمئزة عمّا لا نظام له ". (البيروني، ١٩٨٣ م: ٩٦)

و هذه حقيقة ثابتة كالشمس في وضح النهار. " فالشعر، و هـــو صنو الغناء، و كموهبة نابعة من طبيعة اللسان و العاطفة و الحياة، المقيس بهذه الأوزان و الألحان مما تشترك فيه جميع الأقوام، فلكل أمة و شعب غناء و شعر و كما دوّن الموسيقيون تلك الأغاني و الألحان من الناحية الصوتية بتلك الإشارات الرامزة و الخطوط «النوطة» للغناء و العزف بمقتضاها، دوَّن أهل الأدب من الناحية اللفظية ما يُتغنى به، و يُنشد بتلك الأوزان التي وضعوها في قوالب التفعيلات العروضية". (الزمخشري،١٩٧٠ م: ٨).

الوجه الثالث: أنَّ الباقلاني قد ذكر في الحكاية أنَّ العرب كانوا يعلمون أولادهم الشعر بوضعه على بعض أوزان الشعر المعروفة عند شعراء العرب البارزين نحو الوزن الذي عليه عليه معلقة امرئ القيس، و الذي هو بحر الطويل. و لا شك أنه لا دليل في ذلك على أنَّ العروض العربي مأخوذ من العروض اليوناني، أو متأثر به، لأنَّ العرب بعد زمان امرئ القيس، و هو الزمن الاسلامي على ما يبدو، كانوا يعلمون أولادهم أوزان أشعار أسلافهم. بل يمكن القول إنَّ ذلك وقع " بعد أن ترجم عروض اليونان ". (المخزومي، ١٩٨٦ م: ١٩٣).

و أما ما يخص النظرية الثالثة – التي ذهبت إلى أنَّ الخليل استفاد من أعمال علماء الهند – فاننا إضافة لما تقدم بيانه في المقدمة، نذكر النقاط التالية: تفنيداً لهذه النظرية:

النقطة الأولى: " أكبر الظن أنَّ الهند لم تتعرض للخطر إلاّ بعد أن اجتاح العرب قسماً من من أراضيها في عهد الحجاج، و على يد محمد بن القاسم الثقفي ..... فليس الدارس بمتجن إذا قال بأنَّ الهنود لم يفكروا بالعروض و لم يشعروا بضرورة وجوده إلاّ بعد أن شعروا بالخطر يتهدد كيانهم و تراثهم الذي يعتزون به ... .

و العروض العربي لم ينشأ إلاّ حين دعت إليه الحاجة، و لم تتسم هذه الحاجة بالضرورة إلاّ بعد أن اختلط العرب بغيرهم ". (المصدرنفسه، ١٩٢) لذلك فسبب ظهور علم العروض العربي هو نفسه الذي أدى إلى ظهور علم العروض السنسكريتي، فلا داعي لاحتمال تأثير أحد العلمين في الآخر.

النقطة الثانية: أنَّ أبا الريحان البيروني ذكر اصطلاحاً عروضياً استعمله اليونان و الهنود على حد سواء، فليت شعري على ماذا يمكن أن يستدل بذلك ؟ هل يستدل به على أنَّ العروض اليوناني مأخوذ من العروض السنسكريتي، أو يستدل به على أنَّ العروض السنسكريتي مأخوذ من العروض اليوناني ؟. لا شك أنَّ القول بأحد هذين متوقف على تحقق أمور منها ما يلي:

الأمر الأول: معرفة الأقدم منهما، لأنَّ الأسبق زماناً هو الذي يكون موثراً عادة، لذلك فمعرفة الأسبق أمر ضروري جداً في هذا المجال.

الأمر الثاني: معرفة ما إذا كان هذا المصطلح مستعمل بنفس اللفظ و المعنى أو أنه مستعمل بمعنى آخر، لأنَّ استعماله بمعنى آخر لا يدل على التأثير و التأثر، كما لو كان مستعملاً بنفس المعنى، لأنَّ ذلك يضعف الاستدلال به في هذا المجال.

الأمر الثالث: التأكد من أنَّ هذا المصطلح لم يأخذ طريقه إلى علم الأمة الأخرى بواسطة استحسان العلماء له لخفته و سهولة جريانه على الألسن، لأنه إذا تحقق الأمران: الأول و الثاني فقط فاننا لا نستطيع أن نقطع بالتأثير و التأثر، لا مكان أن تكون إحدى الأمتين قد أعجبها مصطلح أمة آخرى، و استحسنته لخفته و دلالته و سهولة جريانه على الألسن، فاستعارته. لذلك فوجود مصطلح من مصطلحات علم قوم بين مصطلحات علم قوم آخرين لا يدل على أنَّ علم هؤلاء مأخوذ من علم أولئك، لأنَّ القول بتأثر علم قوم بنظيره لقوم آخر ليس ليس بهذه السهولة، و لا يتم بادعاء عار من الدليل العلمي خصوصاً في علم العروض الذي هو هو علم ميزان الشعر الذي يرتبط ارتباطاً مباشراً بمشاعر البشر، و عواطفهم و خيالاتهم الأدبية، لأنهم مشتركون في كل ذلك إلى حد بعيد، و أنَّ الدافع لظهور علم العروض في جميع الأمم التي ظهر فيها هو دافع واحد مشترك أيضاً و هو "الرغبة في المحافظة على سلامة التراث القومي ". (المصدرنفسه،: ١٩١) فاينما وجد هذا الدافع ظهر علم العروض ليحفظ الشعر، و يصونه ليبقى مرآة تعكس أصالة تراث أصحابه. و لا شك أنَّ هذا الاشتراك لا يدل على التأثير و التأثر مطلقاً.

و المهم أنه إذا كان ذلك كذلك، فهل يعقل أن يكون علم العروض العربي مأخوذاً من علم العروض السنسكريتي، أو متأثراً به مع أصالة جميع مصطلحاته، و خلوه من أيّ مصطلح سنسكريتي ؟.

النقطة الثالثة: أنَّ البيروني – الذي هو المصدر القديم الوحيد المعتمد في القول بأنَّ الخليل متأثر بعلماء الهند – هو غير متأكد من أنَّ الخليل قد سمع أنَّ للهند علماً في العروض. قال البيروني: "و إنما طوّلت في الحكاية، و إن نزرت عائدتها ... ليعرف أنَّ الخليل بن أحمد كان موفقاً في الاقتضابات، وإن كان ممكناً أن يكون سمع أنَّ للهند موازين في الأشعار كما ظن به بعض الناس". (المصدرنفسه،١٠٤).

واضح من هذا النص أنَّ أبا الريحان البيروني، لم يثبت عنده أنّ الخليل قد سمع بعلم العروض السنسكريتي، و إذا كان ذلك كذلك فهل يبقى مجال لاحتمال أن يكون البيروني قد اعتقد أنّ الخليل قد تأثر فعلاً بالعروض الهندي و استفاد منه ؟ الجواب: لا.

النقطه الرابعة: أنه كيف يعقل، و يجوز أن يكون علم العروض العربي مأخوذاً من علم العروض الهندي و الدكتور صفاء خلوصي الذي اعتقد ذلك، قد ذكر نفسه أنّ هذين العروضين متباينان، لأنّ

العروض العربي قائم على أسلوب الكم الذي يعتمد على عدد الحروف في حين أنَّ العروض السنسكريتي قائم على أسلوب الكيف الذي يعتمد على النبرات بدليل أنهم يجمعون عدة كثيرة متوالية من السواكن، و العرب لم تجمع بين ساكنين إلاّ في الحرفين الأخيرين من البيت قال الدكتور صفاء خلوصي: " و لم يبين البيروني – مع الأسف ما إذا كان العروض السنسكريتي قائماً على أسلوب الكم العربي، أم أسلوب الكيف الافرنجي و هذا الأخير يعتمد على النبرات أكثر من اعتماده على عدد الحروف في كل نبرة، و يبدو لي من سياق كلام البيروني أنه أقرب إلى أسلوب النبرات الافرنجي منه إلى أسلوب ‹عدد الحروف› العربي بدليل ما يذكره من جمعهم عدة كثيرة متوالية من علامات الخفيف ". (الزمخشري، ١٩٧٠: ٢٢).

و المهم أنه إذا كان العروضان متباينين فكيف يجوز أن يكون أحدهما مأخوذاً من الآخر؟ أضف إلى ذلك أنَّ الدكتور صفاء خلوصي قد أكد " أنَّ الاشباع الذي هو الزامي في القافية العربية يعتبر اختيارياً في العروض السنسكريتي، ذلك لأنَّ القافية العربية أكثر دقة و إتقاناً من القافية السنسكريتية، إن وجدت، مع ذلك فانَّ السنسكريتية تكره القافية الموحدة،خلافاً للعربية". (المصدرنفسه،: ٢٥).

النقطة الخامسة: أننا نعلم أنَّ القافية جزء لا يتجزؤ من عروض الشعر، و ارتباطها بالعروض ارتباط أساسي محكم بحيث وجدنا بعض الباحثين المعاصرين مثل الدكتور إبراهيم أنيس، قـــد اعتبر فصل العلماء القدماء لعلم القافية عن علم العروض غلواً،

فقال: " لقد بلغ من غلوهم في هذا الأمر أن جعلوا القافية علماً مستقلاً له قواعده، و له مصطلحاته ". (أنيس، ١٩٧٨ م: ٥٢).

فالقافية لا تختلف عن بقية كلمات البيت من جهة وجوب أن تحمل نفس وزن البيت، و أنَّ الذي يميزها عن بقية كلمات البيت أن حروفها أو أكثرها تختص بأحكام نغمية، لأنها تؤلف بمجموعها جرساً جميلاً يؤذن بتمام البيت، و يضيف نغماً خاصاً إلى إيقاع البيت، فيطرق الآذان في فترات زمنية منتظمة، و بعد عدد معين من التفعيلات، لذلك اهتم بها العرب منذ القدم. و المهم أنَّ القافية داخلة في العروض، و موزونة به. و لا شك أنَّ القافية العربية أصيلة، و غير مأخوذة من أي قـــوم أو أمة، بل لعل العرب أقدم من استعمل القافية من بين أمم الأرض، و هذا ما أقر به أغلب الباحثين المعاصرين حتى المستشـــرقون، و حتى أولئك الذين اعتقدوا بأنَّ العروض العربي مأخوذ من العروض السنسكريتي مثل الدكتور صفاء خلوصي الذي أقر في نصه التالي أنَّ القافية العربية أصيلة عريقة، قال الدكتور خلوصي: " و ربما كانوا أول من استعمل القافية بين أمم الأرض، على رأي المستشرق الفرنسي ‹رينو› في كتابه: ‹فتوحات العرب في فرانسا›، إذ يقول ما ترجمته: ‹ينسب إلى العرب البدو أول استعمال

للقافية، و الغزل العذري، و شـــعر الحماسة» فالقافية كانت معروفة عند العرب قبل الخليل، تكلم عليها أبو عمرو بن العلاء في كثير من مجالسه ". (الزمخشري، ١٩٧٠ م: ١٩- ٢٠).

لكن العرب القدمـــاء قبل الخليل لم يتكلموا عن القافية إلاّ لأنها وسيلة تعبيرية مستقلة بنفسها عن البناء العروضي للبيت ". (عوني، ١٩٧٧ م: ٨٠- ٨١). لكنهم لم يتكلموا عنها كعلم قائم مستقل. و المهم أنه إذا كان ذلك كذلك، فهل يعقل أن يستقل علماء العروض العربي بايجاد علم القافية، و يعجزوا عن الاستقلال بايجاد علم العروض، علماً بأنّ القافية جزء العروض ؟.

السبب الذي دفع الخليل إلى وضع علم العروض

إنني – فيما يخص الخليل و العلم الذي أوجـــده – انتهيت إلى التمييز بين السبب و الهدف. إذ قد وجدت سبباً دفع الخليل إلى ايجاد هذا العلم، كما وجدت غرضاً كان الخليل يريد أن يصل إليه، و يحققه، فالسبب الذي دفعه إلى وضع هذا العلم سبب أصيل هادف. لذلك فانني أميز – هنا – بين السبب و الغرض، لأنهما موجودان هنا. فالسبب هو الذي يدفع المؤسس صاحب العمل الهادف إلى تحقيق هدفه لذلك أقول: اشتهر أنّ سبب وضع علم العروض هو أنّ الخليل بن أحمد الفراهيدي لّما رأى ما اجترأ عليه الشعراء المحدثون في عصره من النظم على أوزان لم تسمع عن العرب، هاله ذلك، فعقد العزم على وضع علم يحفظ به أوزان الشعر العربي، و يحصنها. ثم خرج بعد حين على الناس و قد حصر أوزان الشعر العربي، و ضبط أحوال قوافيه. فأخرج لهم هذا العلم الجليل. (أنيس، ١٩٧٨ م: ٤٩).

و ذكر فيرواية أخرى أنّ الخليل " تعلق بأستار الكعبة، و قال: اللهم، ارزقني علماً لم يسبقني إليه الأولون، و لا يأخذه إلاّ عني الآخرون، ثم رجع، و عمل العروض ". (اللغوي، ١٩٧٤ م: ٥٨).

إنني، مع أنني لا أنفي هذين السببين المتقدمين، أعتقد وجود سبب آخر مباشر و هادف و يترتب عليه غرض نبيل يتناسب مع شخصية الخليل العلمية و الدينية و هذا السبب هو أنّ الخليل لاحظ اختلال السليقة العربية، و زيغ الملكات اللسانية، و تكدر الحاسة الموسيقية المرهفة، وتصدعها، و معلوم أنّ هذا يؤدي إلى وقوع التغيير في اللفظ و التشكيل حال رواية الشعر، أو إنشاده إذ لا عاصم من ذلك.

فالسبب هو الخوف من حدوث هذا التغيير. و لا شك أنّ ذلك يفرض على علماء مخلصين من أمثال الخليل بن أحمد، أن يبحثوا عن شيء يحل محل تلك السليقة المرهفة التي بـــدأت تختفي من الوجود، و يسد مسدها ليكون عاصماً و صائناً للشعر من هذا التغيير الذي يؤدي إلى إبطال الثقة بالشعر، و منع الاستشهاد بلغاته و ألفاظه و معانيه، و إذا حصل كل ذلك فلا يجوز الاستعانة بالشعر على فهم القرآن الكريم والحديث الشريف، ودرك معانيهما البلاغية، و بذلك يفقد الشعر دوره

الوظيفي و نفقده نحن مصدراً هو الحجة الوحيدة التي نرجع إليها، و نستعين بها على تفسير القرآن المجيد و الحديث الشريف.

و حاصل الكلام أنَّ وقوع التغيير – أو احتمال وقوعه – هو السبب الحقيقي المباشر الذي دعا الخليل، و دفعه إلى وضع علم العروض. فضبط به الشعر العربي وصانه عن كل ما يبطل بكلماته، و يمنع من الاستشهاد بلغاته و معانيه البلاغية، و حول دون الاستدلال به، و ذلك ليتحقق الهدف المنشود، و الغرض المقصود الذي هو أن يستطيع الشعر تأدية دوره الوظيفي في خدمة القرآن الكريم و الحديث الشريف، و هذا الرأي أليق بشخصية الخليل و مكانته.

الغرض من وضع علم العروض

يبدو أنَّ العلماء القدامى ذكروا أكثر من غرض قصده الخليل حين عزم على وضع علم العروض. و إني أذكر – فيما يلي – ما اطلعت عليه منها، ثم أتبعها بذكر الغرض الذي أراه أقرب إلى الواقع، و لذلك أقول: إني اطلعت على غرضين هما الآتيان: **الغرض الأول:** هو الذي ذكره أبو إسحاق الزجاج، و هو التمييز بين الشعر و غيره، فالكلام الذي ينظم على بحور الشعر العربي التي ضبطها الخليل في علم العروض يعتبر شـــعراً و الكلام الذي ينظم على غير هذه البحور لا يعتبر شعراً، و إن كان موزوناً و مقفى كما أنَّ الجمل المنسوجة على خلاف قواعد النحو لا يعتبر كلاماً عربياً فصيحاً. قال أبو يعقوب السكاكي ناقلاً رأي الزجاج: " و مذهب الإمام أبي إسحاق الزجاج في الشعر هو أن لا بد من أن يكون الوزن من الأوزان التي عليها أشعار العرب، و إلاّ فلا يكون شعراً ". (السكاكي، ١٩٨٧ م: ٥١٧).

لكن السكاكي عقب على هذا الرأي، فقال: " و لا أدري أحـــداً تبعه في مذهبه هذا". (المصدرنفسه، ٥١٧). و هذا يعني أنَّ السكاكي يشير إلى أنَّ رأي الزجاج بعيد عن الصحة و الواقع.

الغرض الثاني: هو الذي ذكره الزمخشري و هو حصر الأوزان التي قالت عليها العرب أشعارها فقط، قال الزمخشري: "و إنما الغرض حصر الأوزان التي قالت عليها العرب أشعارها". (الزمخشري، ١٩٧٠: ٥٧). و هذا الرأي ليس بقريب من الواقع أيضاً، لأنَّ الخليل – كما عرف عنه غالباً – لا يقوم بعمل إلاّ إذا أفاد فائدة علمية مشفوعة بخدمة للقرآن الكريم و الحديث الشريف. فهو – كما عرفته الحضارة الإسلامية – منزه عن أن يُجهدَ نفسه، و يُكرّس حياته في أمر لا طائل تحته للدين الإسلامي الحنيف، و عليه يجب أن يكون غرضه من وضع علم العروض أليق بشأنه و أنسب لمكانته، فانَّ صيانة الأوزان و تقييدها وعدم السماح للتطور أن يدخل ساحتها سواء أكان ذلك لغرض أن يُعلم أنَّ ما

ينظم على غيرها ليس شعراً عربياً، أم كان الغرض حصرها فقط، لأمورٌ لا جدوى، و لا خدمة فيها للدين، ولا فائدة علمية ًتتوخّى منها، فانَّ كل شئ يرتبط باللغة لسائر نحو التطور و التحوّل و التجدد، و لا أحد يجهل هذه المسيرة الطبيعية التي لا يحول دونها شئ. و كذا الأمر بالنسبة للغرض الذي لأجله وضع علم النحو، فانما وضع هذا العلم لفائدة علمية دينية، إذ قد حفظ هذا العلم الجليل – أعني علم النحو – اللغة العربية الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم، و جعل العرب على طول الزمن و مر الدهور قريبين من القرآن الكريم و الحديث الشريف مرتبطين بهما مهما ابتعدت بهم لهجاتهم المتباينة بتقادم الزمان عن تلك اللغة الفصحى. فهم ينهلون منهما ما شاؤا متى شاؤا كما سهل علم النحو على المسلمين من غير العرب الاستفادة من القرآن الكريم و الحديث الشريف حتى صار العرب و غيرهم من المسلمين اليوم متساوين في وجوب تعلم قواعد هذا العلم. لذلك كان لهذا العلم دور ذو خطر جسيم و أهمية كبرى في خدمة الدين الإسلامي الحنيف إذ لولا علم النحو. فالسبب الدافع إلى ابتكار علم النحو هو شيوع اللحن أو قل هو التغير الذي لابد للغة منه. أما الغرض، فهو خدمة الدين الإسلامي الحنيف فالسبب هادف يتبعه غرض سام شريف. و المهم أني أرى أنَّ غرض الخليل من وضع علم العروض مرتبط ارتباطاً وثيقاً بدوره الفعال في تكميل هذا الدور المهم لعلم النحو الذي بدأه أمير المؤمنين عليّ – عليه السلام – و أكد على مواصلته، و ذلك بصيانة الشعر عن كل ما يبطل الثقة بكلماته، و يمنع من الاستشهاد به لفظاً و معنى. فالغرض الحقيقي من وضع علم العروض إنما هو صيانة الشعر من التغيير ليحافظ على دوره الوظيفي الفاعل في خدمة القرآن الكريم و الحديث الشريف، و عليه فأهمية علم العـــروض ناشئة من خطورة الدور الوظيفي الذي يلعبه الشعر العربي في تيسير معرفة ما في القرآن الكريم و الحديث الشريف من لغات و معاني. و معلوم أنَّ الخليل بعمله هذا قد حفظ هذا لتراث الفكري.

و قد أعانني على هذا الذي قدمته كلام أبي بكر الشنتريني، حيث قال: "لّما كان ديوانُ العرب المثقّفَ لأخبارها و المقيِّدَ لأوزان كلامها و المبيِّنَ لمعاني ألفاظها و المنبِّهَ على آدابها و مكارمِ أخلاقها، و كـــان حجةً نرجعُ إليها فـــي تفسير ما أشكل من كتاب الله – تعالى – و مَفزَعاً يُلجأ إليه في بيان ما استبهم من حديث رسول الله – صلى الله عليه و آله و سلم –رأيتُ أنَّ العناية بمعرفة أوزانه، مهمةٌ في الدين متعيِّنةٌ على كافة مَن يقوم بها من كافة المسلمين، لأنَّ الجهل بالوزن يؤدي إلى تغيير اللفظ بتحريك ساكن أو إسكان متحرك أو تخفيف مشدد أو تشديد مخفف و ذلك يُبطلُ الثقة بكلماته و

يمنع الاستشهاد بلغاته لتعرُّضها للاحتمال عند مَن يجهل الوزن، و ما كانت هذه سبيله فلا يجوز الاستدلال به إذ ليس أحدُ محتملاته بأولى به من الآخر ". (الشنتريني، ١٩٦٨ م: ١١).

النتيجة

أنَّ هذه المقالة قد عرضت موضوعها على بساط البحث، و عالجته علمياً بايجاز ملحـــوظ ليسهل على المتلقي تناوله، و قد تمخضت المناقشات العلمية عن إثبات أصالة علم العروض، و أنه ولىـــد الحضارة الاســـلامية .

و قد ثبت في خلال البحث أنَّ المصطلح العروضي (المتير) الوارد في كتاب (إعجاز القرآن) للباقلاني، و الذي استدل به بعض الدارسين المحدثين على أنه مصطلح عروضي يوناني دالّ على أنَّ الخليل بن أحمد أخذ العروض العربي من العروض اليوناني، ثبت أنه ليس مصطلحاً عروضياً يونانياً، و أنَّ المستدل به قد أخطأ عمداً أو سهوًا في نقل هذا المصطلح من كتاب الباقلاني مدعياً أنـــه (الميتر) في حين أنَّ الموجود و المثبت في الكتاب هو (المتير) الذي هو مصطلح عربي استعمل منذ الجاهلية .

المصادر و المراجع

- ابن خلكان، و فيات الأعيان و أنباء أنباء الزمان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، سنة ١٩٦٩ م.
— ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الآداب، تحقيق محمد الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي بالقاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٩٣٤ م.
— ابن فارس، أحمد، الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران لطباعة و النشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة ١٩٦٣ م.
— ابن المعتز، طبقات الشعراء، العباسي، تحقيق الدكتور صلاح الدين الهواري، دار و مكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠٢ م.
— ابن منظور، لسان العرب، تصحيح أمين محمد عبد الوهاب و آخر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، سنة ١٩٩٩ م.
— ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة، بيروت، لبنان، سنة ١٩٧٨ م.
— الأزهري، أبي منصور محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١ سنة ٢٠٠١ م.
— أمين،أحمد، ضحى الاسلام، الطبعة العاشرة، دار الكتب العربي، بيروت، لبنان، سنة ١٩٣٥ م.
— الأمين العاملي، السيد محسن ، أعيان الشعية، تحقيق حسن الأمين، دار التعارف، بيروت، سنة ١٩٨٣ م.
— الأنباري، أبي البركات، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار نهضة مصر، القاهرة، سنة ١٩٦٧ م.
— أنيس،إبراهيم، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، الطبعة الخامسة، سنة ١٩٧٨ م.
— الباقلاني، أبي بكر ، إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، سنة ١٩٧٧ م

– بروكلمان كارل ، تاريخ الأدب العربي، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، سنة ١٩٥٩ م.
– البيروني،أبي الريحان ، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، عالم الكتب، بيروت، سنة ١٩٨٣ م.
– الجاحظ، ابوعثمان عمروبن بشر؛ رسائل الجاحظ – قدم لها و شرحها الدكتور علي أبو ملحم – دار و مكتبة الهلال – بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٩٨٧ م.
– الجمحي، ابن سلام؛ طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة
– الحموي، ياقوت ، معجم الأدباء، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩١ م.
– الراضي،عبد الحميد، شرح تحفة الخليل في العروض و القافية، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، سنة ١٩٧٥ م.
– الزبيدي، طبقات النحويين و اللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، سنة ١٩٧٣ م.
– الزمخشري، القسطاس المستقيم في علم العروض، تحقيق الدكتورة ثميحة الحسني، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، سنة ١٩٧٠ م.
– السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، سنة ١٩٨٧ م.
– السيرافي، أبي سعيد، أخبار النحويين البصريين، تحقيق فرينس كرنكو، بيروت، الطبعة الأولى، المطبعة الكاثوليكية، سنة ١٩٣٦ م.
– السيوطي ،جلال الدين ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، دار الفكر، سنة ١٩٧٩ م.
– السيد، عبد الرحمن، مدرسة البصرة نشأتها و تطورها، مطابع سجل العرب، الطبعة الأولى، سنة ١٩٦٨ م.
– الشنتريني الأندلسي، أبي بكر،المعيار في أوزان الأشعار، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية، الطبعة الأولى، دار الأنوار، بيروت لبنان، سنة ١٩٦٨ م.
– طبانة، بدوي معلقات العرب، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، سنة ١٩٦٧ م.
– عبد العزيز، مصطفى، السنجرجي، المدخل في علم العروض، مكتبة الشباب، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٩٧٤ م.
– العروضي، أبي الحسن، الجامع في العروض و القوافي، تحقيق الدكتور زهير غازي و آخر، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٦ م.
– عوني،محمد، القافية و الأصوات اللغوية، مكتبة الخانجي بمصر، الطبعة الأولى، سنة ١٩٧٧ م.
– الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، سنة ١٩٨٧ م.
– القفطي جمال الدين ،نباه الرواة على أنباء النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، دار الكتب المصرية، سنة ١٩٥٠ م.
– الكاتب، أبي الحسين ، البرهان في وجوه البيان، تحقيق الدكتور أحمد مطلوب، و الدكتورة خديجة الحديثي، جامعة بغداد، الطبعة الأولى، سنة ١٩٦٧ م.
– اللغوي، أبي الطيب، مراتب النحويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٩٧٤ م.
– المخزومي، مهدي، الخليل بن أحمد الفراهيدي: أعماله و منهجه، دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٦م

علم عروض میان اصالت و عدم اصالت

دکتر محمد ابراهیم خلیفه شوشتری
استادیار زبان وادبیات عربی دانشگاه شهید بهشتی

چکیده

واقعیت تاریخی گواه آن است که علم عروض همانند علم نحو زاییدهٔ تمدن اسلامی است، و مبدع این علم، خلیل بن احمد فراهیدی است که کتابی در این باره نوشت و علم عروض به دستان توانای وی تکامل یافت که این امر حاکی از استعداد و نبوغ او دارد. اما به خاطر عواملی چند، که زیر آمده است، گروهی از پژوهشگران به اصالت علم عروض تردید کزده‌اند:

1- ظهور علم عروض به یکباره و تکامل یافته به دست خلیل بن احمد فراهیدی چرا که پیدایش آن، تابع سنت تکامل تدریجی نبوده است.

2- وجود متنی از ابن فارس که از آن چنین استفاده می شود که علم عروض قبل از خلیل وجود داشته است.

3- وجود متنی از بیرونی که دال بر این نکته است که خلیل در وضع علم عروض پیرو هندی‌ها بوده است.

به خاطر این عوامل ومانندآن، برخی از پژوهشگران جدید معتقدند که علم عروض عربی برگرفته از علم عروض سانسکریتی است، وگروهی دیگر بر این باورند که برگرفته از یونان است و گروه سومی هم معتقدند که عروض قبل از خلیل نیز وجود داشته است.

با بررسی آراء و نظریات مخالف و اثبات بطلان آنها؛ و ارائه دلایل تاریخی و علمی مبنی بر اصالت علم عروض؛ و بیان غرض اصلی خلیل بن احمد از ایجاد این علم؛ ودر آخر بیان حقیقت کلمهٔ (المتیر) در نزد باقلانی؛ اصالت علم عروض ثابت می‌شود.

کلید واژه‌ها: عروض، قافیه، بحر، تفعیله، وزن، المتیر